الكتاب الثانى

الرجل والانجليز

فى كل عصور التحلل والانحطاط ، تشتغل النفس بذاتها ، وفى عصور التقدم تشتغل النفس بالعالم الخارجى .

جيته

الباب الأول

الرجل

شارف الفتى حدود الخامسة والعشرين فانبثقت ينابيع الرجولة من سكناته وحركاته وقسمات وجهه فبدا سمهرى القامة ، عظيم الهامة ، فيه من سمات القواد ، ليس بالقصير ولا بالطويل (طوله ١٧٠ سنتيمتراً) ضامر الجسم فى غير نحول (وزنه ٧٢,٥ كيلو جرام ومحيط صدره ٨٦ سنتيمتراً) . أدنى إلى البياض منه إلى السمرة ، نافذ النظرات ، فى عينيه شعاع عامر بالأنس والطمأنينة والتصميم ، غزير الحاجبين كث الشارب حليق الذقن كل صباح ، يميل وجهه إلى أن يستطيل من تحت جبهة متبدية للناظر . وأنف دقيق وفم أنيق ، يغلب عليه الابتسام . يكاد يحدثك أنه لا يستحب الكلام ، يعلو رأسه شعر رجل فاحم السواد ، أشعر الذراعين والصدر . لا يتختم ولا يتعطر ، ولا يتبدى فى الألوان الزاهية كذيل الطاووس من حلل الشباب أو قوس قزح ، وإن حسب الرائى أن يدأ صناعاً قد تعهدته بالترجيل والتصفيف وإبراز آيات الرجولة وسمات الأناقة من حسن هندامه .

بل كان من صنع الله ما يطالعك به وجهه من بعض صفات الرسول أن « من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه »

لتظنه من كبار الرياضيين وهو لا يمارس من الرياضة إلا يسيراً من الصيد وكثيراً من السباحة كلما آذنته دواعي الفراغ . أو لتظنه فارساً أضمره ركض الخيل فى حلباتها ، وهو لم يعد يركض الخيل إلا لماماً بعد أن كان لا يكاد يرى إلا على صهواتها ، وكأنما أضمرته الأفراس التى يمسك بأعنتها فى السماء ، أو كأنما اضمرته همته .

« الفارس »

وفى حين عنيت بهندامه أيدى خياطين من أبرز الخياطين فى القاهرة كان ينكر المعروف من غلاء أثمان ثيابه . ويغلب عليه التواضع بل الانطواء ، وحبه ألا يبدو عليه مظهر من الثراء أو الجاه ، كأنما الثراء عنده إحدى الكبر .

وفى حين يمشى مرفوع الصدر مرفوع الرأس عالى الجبهة نفاذ البصر ـ وتلك كانت مظاهر ثقته بنفسه ـ كان يمشى وكأنه يجرى ، فى هرولة ، ولا يتلفت للناس ولا يداوم النظر فإذا التفت التفت جميعاً ولم يلو عنقه ـ وتلك كانت علامات تواضعه وحيائه ـ يدركها فيه بعض عارفيه ، إذ

يفصل عن دار يتكتم أمرها ، لمحروب أو محروم أو مستخدم يقول لهم معروفا ، أو يفشي فيهم عطاياه . وأجود الجود أخفاه .

داعبه صديق بلقب Comte d'Ein Shamse (كونت عين شمس) فجزع مخافة أن يظن به استعلاء .

لم يكن يطاول الناس بأشيائه ، ولا يجرى وراء الثناء ، بل يؤثر أن يحدث الشيء على أن يتحدث عنه ، ويبدى الرأى فى أسلوب يسر ولا يبهر ، فإذا تحدث أقل وأقنع ، ووضع المقالة فى مواضعها ، فى وعاء من الصراحة والمودة وإخفاء الفضل الذى له ، يشعر السامع أنه صاحب الفضل فيما يسمع منه . لا يتغضب على أحد فما فى قلبه موضع لحقد أو حسد ، يملك لسانه وسمعه وبصره ولا يتسقط الخبر ، ولا يلقى السمع ، ولا يتدخل فيما لا يعنيه . كل أولئك فى مزاج من الترفع والتواضع واليسر يحبب الدنيا التى هو فيها إلى من كتب له أن يلقاه فيها .

فإذا زاره الملك عبدالله ومعه حمد الباسل (باشا) ورسمت لهم صورة . رأيت أنداداً ليس بينهم إلا فوارق السن . فإذا جالس الأصدقاء من الوزراء أو رجال القضاء أو كبار الكتاب أو الشيوخ أو النواب أو هيئة كبار العلماء ، فهو السمح المضياف يقرى ضيفه خير القرى فى أرجاء بساتينه . وإذا تناقشوا أمامه فهو صموت سكوت يعلم أن من البلاغة حسن الاستماع . . وهو يزن بعقله كل كلمة ليهضم كل فكرة ، بعد أن يعمل فيها أوزانه وأقيسته .

كانت له صداقة بالأمراء العرب مكنت أسبابها صلاته وأسفاره ، وكانوا يقدمون القدمة إلى مصر فيولم لهم ، لا على طريقته من الاعتدال ، ولكن على طريقتهم من البذخ ، فإذا تحدث فى ذلك بعد إذ يفصلون عن داره كان كالمعتذر .

لكأنما كان يحسب المجاملة فرضاً عليه فقضى حياته مجاملا ـ يجامل أصدقاءه بقروض لا تستأدى فلا تعرف إلا بعد وفاته ، فإذا علم أن خليلا له أو صفياً عنده يبنى بزوج كان كأنه هو ، فيمده بكل ما يسع جهده ، أما جيرانه فإخوانه أو أهله ، يكاد يقاسمهم أشياءه ونفسه ، فإذا كان الجار الجنب أو الصاحب بالجنب خصما لأبيه على نحو خصومة الجيران أو تنافس الأقران ، انقلب الجار ولياً حميما لا يفتأ يسأل عنه. بل يبلغ به المدى أن يضحى به معجبا، كمثل ذلك المحارب القديم الفريق «عزيز المصرى»

أما العلم فلا حياء فيه ولا مجاملة ، بل فيه مجادلة وحجاج : قرأ كتابا عن « الهلباوى المحامى » فأطلق آراءه فى الكتاب ومؤلف الكتاب ، غير مجامل ولا هياب، فالمحامى عنده عملاق فى المحاماة وخيبة سياسية كبرى! لأن السياسة علم يحتاج لتخصص . وله أقيسة ومثاقيل وأوزان كالميكانيكا أما أن يتصدى لها عباقرة العلم او الفن كلما عن لهم الهوى ، أو سنحت سوانح الفراغ ، كسهرة الساهر فى الأوبرا أو رحلة الراحل إلى أوروبا ، فذلك ليس السبيل القصد لإصلاح الشعب .

عرف أن فى جواره مسجداً يبنى بعزبة النخل فكان سباقا بما يرتجى عنده ، كمثل ما صنع فى مسجد الحلبية القريب من عين شمس .

فإذا استقصيت بره بعماله لما بدا لك عجبا أن تربطه بالسائق الذى علمه قيادة السيارة ، أو اصر جد موثقة ، فلم تفجأه فاجئة بلاء فى حياة رجله . بل وهبه رقعة رحبة من أرض البناء إلى جانب السكة الحديدية يربو ثمنها على الألفين من الجنيهات . ويبنى السائق لنفسه من عطفه داراً تبقى مثابة لصاحبه . ويبقى الطاهى الذى كان يطهى له حتى يطهى لبنيه ، وله كذلك قطعة أرض ودار .

فإذا تكلم عن خدمه أسماهم (المستخدمين) وعاملهم كمستخدمين .

والميراث المخلف له من رهط الجوارى المعوزات لم يكن عبأ عليه ، بل كان بعض وسائل التسرية عنه . يزورهن زيارات منتظمة حتى لا تجحف الفاقه بهن ويؤتيهن « حقوقهن » لا منحة ممنوحة . ولكن فريضة مفروضة بانتظام ، وتقف سيارته حين يلقى إحداهن فتروغ فرقا من هيبته . فيطامن من خطبها باستخبارها أخبارها وأسعارها ، ثم ينفلها جنيهات . ولا تكاد السيارة تستوى على الجادة حتى تنفك عنه مظاهر الحياء الذى أصابه من جراء الاضطراب الذى أصابها . ثم تحل البهجة عليه فيأخذ بأطراف التندر والمداعبة

كل ساعات فراغه مع أولاده وزوجه فى صحن الدار أو بساتينها أو فى مشارف القاهرة ، إلا ما يزجيه منها فى حمام السباحة مع الطيارين فى حوض ناديه

فى حوض ناديه

وتعليم ولده مشغلة فؤاده ، يقرئهم القرآن بصوت مسموع فى خارج القاعة ويلقنهم دروسهم ويجالس أساتذتهم ، كأنهم أساتذته ، فيبهرهم بحيائه وأصالة آرائه

° ° °

وفى حين كان مظهره وقاراً كله ، كان فى دخيلة نفسه يهوى النكتة الوقور ويتعاطاها . وكأن ما ركب فيه من الدقة والعقل الهندسى والتعمق قد زين له طراز النكات العلمية أو الاجتماعية التى تقوم على مفارقات الناس ولعل أبرز مظهر لهذه الفكرة عنده ، ما يروى عنه من مأثور عباراته . بل على الأصح من بعض اتجاهاته .

كان له صديقان من الموظفين الفنيين فى إحدى الجهات القضائية هما : الأستاذ ن والأستاذ ج من أولاد الأثرياء ، استقال أحدهما إذ نقل إلى أسيوط فلما بلغه أمره عقب بقوله (الفلوس يا افندم) ، وبعد عامين استقال ثانيهما ولم يكد يسمع الخبر حتى علق نفس التعليق ـ كأنما هو جواب واحد عن سؤال واحد (طبعا طبعا الفلوس يا افندم). وما قصد إلا عجز أبناء الأثرياء عن أن يلوا عملا مرهقا .

وتحل النكتة الفرنسية التى كان يسيغها ويحسن اختراعها فلا يسكت عنها ، فيشير إلى الثروات الطارئة على معارفه من أثرياء الأمم التى يطير اليها ، من سائل الزيت الذى تفجرت فيها ينابيعه بقوله (أيوه يا افندم Argent liquide-Argent liquide) يقصد بذلك النقود السائبة أو السائلة كالزيت السائل .

ويرى السائحين من المطارات ينسلون فيضحك الله سنه ، وكم كان حسن المضحك ، ويقول Aux Pyramides - Aux Pyramides . . إلى الهرم إلى الهرم . ويترقى من الدعابة إلى الجد فيقول : « ألم يكفنا أن نعيش فى الماضى وعلى مخلفاته ؟ ألم يأن لنا أن يزور الزائرون معالم الحضارة الحديثة عندنا ؟ لقد أضحت آثار العصور الغابرة إعلانا ضدنا ، مذ كانت زيارة مصر القديمة وحدها برهان موت مصر المعاصرة » .

ويتساءل « لماذا لا يزورون الجامعات إلى جوار الجوامع ... »

« ولماذا لا نبنى لهم معالم على روح العصر فى مصر ، حيث تتجمع من روافد التاريخ والجغرافيا وحضارة القرون ، ثقافة مصر الحية النابضة التى لا ينافسها فيها منافس » ؟

اشترى مرة إحدى السيارات من أمير يجاوره ، وأصابها العطب بعد شهور ، فراح يقلب الأمور الأمير ، ويتهكم على السيارة مشيراً إليها بقوله عنها l'Altesse Royale أى (صاحبة السمو الملكى) ثم يقول (أول معاملة وآخر معاملة مع صاحب السمو)

وكانت تأخذ بمجامع قلبه مفارقات « نجيب الريحانى » فلا تراه يستغرق فى الضحك حتى تبدو نواجذه كمثل ما يضحك لدى « الريحانى » .

طالما ردد أضحوكة الريحانى عن الملف الحكومى للموظف المنقول من إمبابة إلى الجيزة إذ بقى يتردى فى الروتين الحكومى حتى انتقل صاحبه ، لا من إمبابة إلى الجيزة ، ولكن من الحياة الدنيـــا إلى الحياة الآخرة

وطالما ردد قوله عن أحد « الفشارين » إذ وصف أباه فى معرض المباهاة ـ وكان بائع « بليلة » ـ فقال عنه « تاجر غلال » ولما ذكره محدثه أنه يعرف أباه قال « تاجر غلال » مبلولة » يا أفندم » !

وإذا سمع فى الراديو وزيراً غير مبين قال كلمته الفاكهة المرحة عن « شاعر مجلس الأبحاث » فى إحدى رواياته وكان تأتأ فأفأ ، (دا فصيح بشكل) ! !

كانت تأسره دعابة ذلك الممثل لسبب يعرفه ولسبب لعله لم يكن يعرفه ، أما الأول فكما كان يقول : إن الريحانى كان رساماً نابغاً لمتاعب أمتنا

وظل البغاة لها . فكانت الملهاة عنده مظهر المأساة ، وكانت الضحكات أو النكات ، صدى الصيحات ورجع المواجع .

بل إن الريحانى نفسه بدأ بتمثيل المأساة وانتهى إلى أن صبغ فنه « بالكوميديا أو الملهاة » .

كأن ذلك الممثل فى طربوشه المستكين على رأسه الهاجع ، وجسمه المنتفض ، وفؤاده الجسور ، وظروفه التى تعلمه الصبر ، وتعلله بالأمل ، وتسكب فيه المرح حتى يجىء أمر الله ، هو المصرى فى صحيح شأنه كما يعيش فى الواقع . أو « المصرى أفندى » كما يرسم فى الصحف ... تمثالا لرجل لا يعرف الخضوع وإن كان يعرف المصابرة . يأخذ بها ظالمه ، فيحاربه بالنكتة وبالسخرية وبالتربص حتى يمكنه منه نصر الله .

أما السبب الثانى فذلك أن تعبيرات الريحانى كانت «مختصرة مركزة» ... فيها تعمق ورونق ، وقوة واعتدال ، وخفوة ويسر . وكان أحمد نفسه « تعبيراً مختصراً مركزاً » فكذلك كانت حياته وتعبيراته وما يهواه من تعبيرات عن الحياة

وكان يكثر من دعوة ضيوفه إلى المسرح ليشاطروه استمتاعه فيسهرون ويسمرون ، غير أنه فى ذات مساء دعا سيدة من كبريات ربات البيوت المصرية ، وإذا الرواية تدور حول سيدة لا تلد ، زعمت لنفسها طفلا ليس من نفسها ، والضيفة سيدة لا تلد !

كانت ليلة ليلاء ... فبقى واجماً فى إحدى المقصورتين اللتين ضمتا مدعويه ، ووجد من ذلك وجداً شديداً ، واشمأز قلبه ومرضت نفسه ، فلم يغش المسرح قرابة عام

أما أسباب متعته الأخرى فهى قراءاته ورحلاته ، يعود من الخارج بحمل كبير من المجلات والصحف والمؤلفات الميكانيكية ينكب عليها

انكباباً بين رحلة وأخرى . فكانت إلى جوار مكتبة أبيه والمساجلات والرحلات والتجارب ، مصادر غذائه العقلى .

* * *

كان له من المنطق المبسط والتعبير المركز أحكام نهائية يصدرها على الأشخاص والأشياء . خذ مثلا إحدى مقولاته فى إنجلترا (سمسار قديم يعيش من دماء الأمم) ، أو قوله فى الإنجليز (إنهم المرابى « شيلوك » الذى وصفه « شكسبير » وما وصف إلا أهله) . أو قوله عن تشرشل (عجوز يعيش فى غير عصره) . أو قوله عن إيدن (إن الذى لا ينجح فى سياسة نفسه لا ينجح فى سياسة أمته)

أما المستر « أتلى » ، فأحد باعة المحال التجارية ، بشكله وعقله ، يبيع ويشترى فى « ١٠ داونتج ستريت » مقر مجلس الوزراء البريطانى ، أو قوله عن المستر « بيفن » وهو محمول على محفة فى وزارة الخارجية المصرية ليلقى وزير خارجيتنا (يتاجرون حتى بالمرض)

ولما رحل رئيس الوزارة الإيرانية (مصدق) إلى أمريكا بعد أن ألغى اتفاقية الزيت البريطانية حمل فى سرير المرض بالطائرة وكانت نفقات رحلته من حسابه الخاص ، فوقعت الرحلة فى قلب الطيار المصرى كل موقع ، وراح يقطع بنجاحه ، وحجته فى ذلك أن « مصدقاً » يجب أن يسمى « مصدقاً » أى « صادقا » فهو مذ طار على سرير المرض وعلى حساب نفسه ، قد أشهد نصف الكرة الغربى ، بل أشهد عليه ، أنه رجل ميت رحل اليهم ليموت عندهم ، لا أرب له فى عرض من أعراض الدنيا ، فلا قبل به للرشى أو للمناورات التى يبتدعها ساسة ذلك العالم

وكثيراً ما كان يقول « إن شمس الحضارة ستشرق من الشرق مرة اخرى . وكما نجح « غاندى » ونجحت الهند ، بأسلحة الشرق من هدى

النفس ، سينجح «مصدق» وتنجح إيران . وعندما نجد مصرياً «كمصدق» سينجح ذلك المصرى وتنجح مصر » .

كانت نفس الدكتور طه حسين من أقرب الأنفس لذاته . فقرأ كتبه القصار جميعاً وقرأ بعضها مرات

فلما ولى وزارة المعارف اعتبر ولايته آية النجح فى وزارة الوفد . ولما رآه يهدم ويبنى ويغير ويطور أخذته نشوة أمل . فغدا لا يصبر على قدح فيه فيقول « إن الذين يتهمونه بالثورة هم الثائرون على سنة التقدم ، وإن التوسع فى تعليم الشعب هو صيحة الحرب على العدو وصمام الأمن لأمتنا. فليت لمصر ثواراً مثله فى الاقتصاد وفى السياسة والاجتماع. فإنما منع ثورة سنة ١٩١٩ أن تحدث كل آثارها ، قيامها على السياسة وحدها دون الاقتصاد والاجتماع والتعليم . والنهضة كالطائرة يجب أن تصعد فى الأفق بجمعها لا بجناح واحد »

ويتساءل « أليس أنجى لنا ولأولادنا بعدنا أن يعيشوا أقل سلطاناً ومالا ، بين مواطنين أحسن حالا ومآلا ، من أن يعيشوا أكثر سلطاناً ومالا ، فى أجواء غير ذات أمان ، تتخم فيها بطون قليلة فى حين تبيت البطون الأخرى طاوية خاوية ؟ »

ويضرب لسامعيه مثلا أصحاب الطائرة المتواضعة تحلق فى أجواء مؤاتية وسماء صافية « أهم خير أم أصحاب الطائرة الجبارة استعلت فى الهواء وجابتها كسف الثلج المتهاوية، والزعازع والأنواء ، والأرزاء » ثم يقول :

« إن تقدم الأمة فى توازنها ، توازناً بين الحاكم والمحكوم ، وبين الغنى والفقر ، وبين الصناعة والزراعة والتجارة ، وبين التعليم الجامعى وبين جمهور الأمة ، وبين الناخبين والنـــواب وغير هؤلاء جميعاً » .

ويقول تلك المقولة البارعة فى كثير من مجالس جداله [إن الدعامة الكبرى لغرس الوطنية فى الشعب هى أن يحب الكبار الوطن فى أشخاص الصغار بالتواصل العقلى والعملى، وأن يحبه الصغار فى المثل العليا التى يضربها الكبار لهم بحسن صنيعهم وجليل مزاياهم وإلا . . . فلا يلومن الكبار إلا أنفسهم]

ولما حان الوقت لياخذ بنيه بأسباب الدرس ، أبى أن يعلمهم فى المدارس الأجنبية وأصر على أن يتعلموا فى المدارس المصرية ، لينشأوا النشأة الأولى بين نظرائهم وعشرائهم ، فى حين كان له عشرة من أولاد ذويه فى عهد الطلب فى مدارس فرنسا أو مدارس الجزويت والأمريكان بالقاهرة

وعندما دخلت بنته مدرسة الليسيه ، قال كالمعتذر للناس إنها بنت يريد لها ذلك المنهاج من الثقافة

على هذا النحو من التفكير فى التعليم وفى التوازن الشعبى كان تفكيره الاجتماعى . فكم سمعت الحجارة فى شرفات داره آراءه عن وجوب توزيع ثروة الأسرة المالكة السابقة ومن يشبهها من الأثرياء بثمن معقول على زارعيها . فإذا ووجه بأن مكانه وراء هذا الباب لو فتح ، تبسم ضاحكا وأجاب فى معرض الجد بالجد ، وفى معرض النكتة بأبرع نكتة ، فيقول حيناً « سأنفذ القانون » ويقول حيناً آخر « وهل أنا من الأثرياء » ؟ أو يشير بيده باسم الثغر إلى السماء ، حيث آفاق نشاطه وكسب حياته ، ويهمس فى أذن مجادله « وفى السماء رزقكم وما توعدون »

عرف أن زوجة أوربية لصديق فى السلك السياسى الأجنبى زارت أخت الصديق فى ضيعتها ورجعت تقول « مسكن كساكن أمرائنا ولكن فى أى وسط ! ليت القصر كان أدنى جلالا، وليت مساكن فلاحيه كانت

أحسن حالا ، فانطلق يردد الواقعة ويقول « لقد وجـــدت المسألة J'ai trouvé la formule فهذا هو التعبير الصحيح عن مشكلتنا . إن على كل منا أن يصلح فى محيطه ما استطاع حتى لا يكون الثراء أو العلم أو الرقى شذوذا يهوى فى أعماق المحيط »

ولم يك قال ذلك إلا بعد أن عمل ما استطاع ... من مشاركة لتابعيه ولأصدقائه وعملائه ، فى كل ثمرات ثرائه . على أساس الفلسفة التى كان يعبر عنها إذ ينقل عماله أشياءه أو يحامل مستأجريه « إن ذلك هو المصلحة والوزن الصحيح للأمور ، لا فروسية فيه ولا وثبات خيال ولا استعلاء ولا سخاء ، لكنه أساس إنسانى لتوثيق علاقاتنا معهم وضمان حقوقنا عندهم ، بدعم أوضاعهم التى ألفوها فى حياتهم الخاصة وحياة أسراتهم ، وهم يعبرون عن ذلك بفتح بيوتهم ، ونحن - فى الحق - نفيدهم لنستفيد وإياهم على أساس إنسانى »

ومن أقواله السائرة التى كنت تسمعها فى مواسم الإيراد فى مجالس أسرته « إن مائة جنيه فى جيب « فلان » ستصرف فى الأوبرا أو السينما أو عند حائك الثياب ، لكنها عند « فلان » طعام وتعليم أولاد ، والمفاضلة ظاهرة »

وكم فى قريته دور يملكها تركها لذوى القرابات من المستحقين .

وفى حين كان المحيطون به ينحون عليه باللائمة لانصرافه عن مصالحه المادية والمالية إلى هواية الطيران ، ذكره مذكر بمزرعة يملكها فى بندر بنى سويف من ارض المساكن تزيد على الخمسين ألفاً من الثمن ، لو زرعها موزاً لو سعت جهده ، ولأغلت فى العام الواحد ربع ثمنها ، فلم يلق صغوه إلى القائل . بل راح يطير ويطير

وقيل له إنه يستطيع أن يخطط مشروع مدينة جديدة بتمامها فى أرضه فى نحو مائة ألف متر على جانبى السكة الحديدية ، والشـــارع الرئيسى بعين شمس ، أحاطت المساكن بجهاتها الأربع ، ولم يبق سواها أرض للبناء ، فلم يلق باله إلى القائل . وأقبل على هوايته الكبرى فزاد طيرانه

ولما أعلنت الحكومة عن كهربة خط سكة حديد عين شمس ، وهى تجرى بين شطرين من أملاكه ، كان حديث ذلك فى خلال معركة القنال. فلم تظهر عليه نشوة الذى زاد رأس ماله مائتى ألف من الجنيهات أو ثلثمائة ألف . وداعبه محدث ذات يوم بأن أذنه لا يقرعها رنين الذهب ، فتبسم ضاحكا من قوله وأجاب « ليس لى أذن موسيقية »

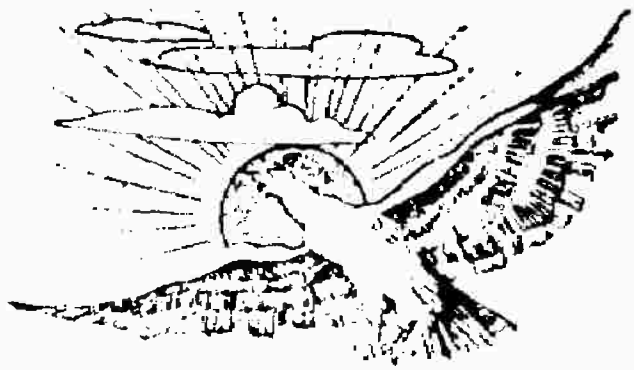

الباب الثانى

الانجليز دائما

ولد أحمد عصمت فى ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٢٢ فهو من أبناء مصر الحديثة التى رأت النور فى آفاق سنة ١٩١٩ ، ورضعت لبان النهضة التى تعهدها « مصطفى كامل » و « محمد فريد » فى فاتحة القرن . وكان لزاماً لها عامل الضغط الداخلى فى الحرب العالمية الأولى ، يصطدم بالعدوان الخارجى ، لتشتعل النار ويحدث الانفجار ، فيذكر العالم بنا ، ويذكرنا بأنفسنا .

ولم تكن السنون تتقدم بطائفة من الشباب فى تلك الفترة من التاريخ إلا استفحلت بغضاؤها لهؤلاء الباغين على أمتنا . الغاصبين لحريتنا .

كانت عقول الناشئة تعيش على تاريخ رسمى مكذوب ، وتاريخ صحيح غير مكتوب .

أما التاريخ الأول فكان ، وما يزال ، دسيساً إلينا من الاحتلال . محصله أن القومية المصرية محل جدل ! وأكذوبة أخرى ، من خبل القصر وزلفى عبيده ، فحواها أن مصر ليست هبة النيل كما قال « هيرودوت » من ألفى عام ، ولكنها هبة الولاة من عهد « محمد على » !

وسقط فى أيدى الأحزاب والحكومات . فلم تستطع أن تقهر القصر أو تصحح التاريخ . وعجزت البرلمانات العشرة ـ إلا برلمان الائتلاف فى سنة ١٩٢٦ ـ عن أن تنتصب نداً للملك !

وأما التاريخ الثانى عن مجد مصر ، وقوة مصر ، وخيانات من خانوها مع العدو ، فكان يعلم بعضه من يقرؤون المؤلفات الأجنبية ، أما الآخرون فقد علمتهم ثورة سنة ١٩١٩ أن يظهروا عليه بقلوبهم ، إذا لم تطلع عليه أعينهم .

لم تكد أصوات مصر تدوى فى سنة ١٩١٩ حتى تناهت إلى « الوفد المصرى » مقاليد قيادتها ؛ ولم يلبث الوفد يسيراً حتى انتثر أفراقاً ، فألف « الأحرار الدستوريون » حزبهم لاستصدار الدستور ، واقتراص الفرص لمصلحة مصر عند الإنجليز . وكان ذلك فقه « النظام البرلمانى » الذى صنع على أعينهم ؛ لكن « سعد زغلول » انتزع منهم الإجماع البرلمانى باسم الشعب فى قوة واقتدار ، ولم يكد يجلس على رأس النظام حتى أوهى العصب جلده ، فلجأ إلى ائتلاف معهم انفض بعد مماته .

وخاصم الملكان فؤاد وفاروق الدستور منذ صدر ! واصطنعت أحزاب ، واخترعت أحزاب ، ووالى الملك شيعاً دون شيع . وبث عيونه وأعوانه فى كل مكان . وأقصى الأحرار من جميع الجهات عن المراكز الأولى . فلما سيطر على القوى الحزبية أمسك الحركة الشعبية من مفرقها ، وصار حكما بين الأحزاب . فكان النشاط الحزبى دوراناً فى حلقة مفرغة . وكان التقدم الشعبى سراباً .

وفسدت أداة الحكم نتيجة للفساد السياسى ثم صارت سبباً لاستمراره ، وعريت جلود الملايين ، وخويت بطون الملايين ، لحساب بضعة رؤوس فى مشيخة النظام وبضع مئات تجرى فى ذلك الفلك .

فأى ضغط كانت ترزح تحته أعصاب الشباب فى ذلك الزمان .

فى أخريات هذه الأيام بلغ أحمد عصمت مبلغ الرجال ، وكان الزعماء قد حشروا مسحورين إلى مركز الثقل فى الإمبراطورية البريطانية ، مبهورى الأنفاس من قعقعة السلاح ومظاهرات الغواصات خافية بادية فى قناة السويس ، ومن المؤتمرات التى تعقد تحت نذر الحرب الحبشية أو الحرب العالمية الثانية .

ومد لهم غصن الزيتون تحت عنوان إلغاء الامتيازات الأجنبية التى جعلت منذ تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ مفتاحا تفتح به مغاليق الشر على مصر . . . فوقعوا معاهدة ١٩٣٦ .

ولم تكد تتجرم أربع حجج على توقيع المعاهدة حتى بلغ فتانا من الرشد ما أذن له باقتعاد مقعده فى مجالس كبار الرجال ، كأمل لأسرته وجماعته شديد النقمة على الطاغين ، شديد التوقان إلى المزيد من الحرية ، يصدف بطبعه عن العمل الرتيب حيث لا تتجلى وثبات الفكر القادر أو العزم القاهر . فآثر التحليق فى طبقات السماء العالية .

وفى سنة ١٩٣٩ كنا فى حالة حرب ، لم نكن من جناتها — علم الله — ولكننا صلينا بنارها ، وأخذ الهم بخناق كل مصرى بما ضيق الإنجليز علينا توسعة لأنفسهم . مذ كانت خطة الخطط لديهم أن يحاربوا بجنود غير جنودهم ، وأن يخوضوا المعارك فى غير ديارهم .

وغزيت مصر من أجلهم مراراً . فكانت كل غزاة لها كجراحات الرماح للضمير المصرى ، وأخذ الشباب المصرى يتناجى بتصفية حسابه مع الانجليز وإن لم يكن بملكه أن يصفيه ، إذ كانت تحتل كل مكان من أرض الوطن فيالق إنجليزية مخاطة تخليط الامبراطورية المترامية الأطراف والأعضاء ، فكان الأمر غمة وكان ملتبسا .

كنت تسمع الجدل فى كل مكان بين الداعين بالنصر لأعداء الإنجليز وبين الفريق الآخر من الوطنيين .

أما الأولون فراعتهم بوادر ظفر الاسلحة الألمانية ، فى حين كانت الجيوش الإنجليزية ـ فى فاتحة الحرب ـ تتصدع وتتراجع وتنهار

وأما الفريق الآخر فكان يرجىء حكمه حتى تكشف أمريكا عن سياستها ، فتنضم ، أو تحجم عن الانضمام ، إلى الإنجليز

كانوا يرون الحرب فى الواقع جلاداً بين حضارتين هما الحضارة الألمانية والحضارة الانجليزية الأمريكية . وأن أمريكا ستخترط السيف يقينا للدفاع عن حضارتها .

ويرون القضية قضية بين القارات ، بل بين عالم وعالم ، وفى أمثال هذه القضايا يسمع صوت الغريزة لا صوت الأرقام وحده ، بل الأمر أمر الحضارة المعاصرة ومصايرها لم يحن بعد حينها ، كما كانت تنبئهم مشاعرهم ، ولأمريكا الكلمة العليا إذا مدت يدها ... وإن أمام الحضارة الأمريكية لسبحا طويلا . . .

وكان فتانا من الرأى الثانى يرجح ظفر الانجليز ويتمناه .

« فإن جولتنا مع الإنجليز قصيرة ـ على ما كان يقول ـ والظفر فيها مأمول ومعقول ، لأننا جاوزنا أكثر المدى معهم ، أما مع الألمان أو الطليان فسنكون فى بداية شوط جديد . . . . . مديد »

كان يأمل الخير فى أمريكا . ويردد أن أساتذته فى الجامعة الأمريكية لم يكونوا يفهمون المصريين فإذا فهموهم عشقوهم أو كادوا يعشقونهم .

ويقول « لو فهمنا الأمريكان لكنا فى الشرق رسول السلام للحضارة الغربية ـ فتلك وظيفة مصر ، لموقعها من الأرض ، وسابقتها فى الحضارة

وقوتها عدة وعدداً . وهي بهذا أجدى فى الشرق من الانجليز فى الغرب حيث لا أحد يأمن للإنجليز فى أوروبا » .

انطلق الإنجليز يجيعون مصر ويدنسونها ، ويقتطعون أقواتها ، بل يجورون على نقدها بمقتضى اتفاقية فرضوها عليها فى الحرب العالمية الأولى فانتكست ميزانيتها من جرائها وما تزال فى انتكاس .

وأظلمت القاهرة وافشعر كل بلد غير القاهرة ، وكان نعيق الصفارات يملأ الآفاق ليل نهار نذيراً بالهلكة والدمار . وحشر المواطنون زمراً كالنمل إلى مساكنهم التى لا تسعهم ، والخنادق التى خندقوها عليهم . وبلغ السيل الزبى ، أن غلبت القوات الإنجليزية على الأحياء الوطنية حيث بيوت الله ، فزاحموا المصريين هنالك فى أموالهم ومساكنهم . واستفحل الغلاء بما أدخلوه فى النقد من نقودهم ، ومدوا لعملائهم من غير المصريين أسباب الثراء ، فراحوا يثرون ويمنعون عنا الماعون ، ويتجرون فى ذخائر الحرب وينتهبون أموالنا بطريقة أو بأخرى .

وكانت عين شمس كعبة القصاد فى هذه التجارة الحرام ، تكتنفها المطارات والمعسكرات ، وفى تخومها طرائق القنال . تجرى كشرايين الحياة ، إلى قواعد العدو ومستودعات معداته .

كم من رذيلة شهدها الذين خالطوا جند العدو فى ذلك الزمان من قتل أو سطو إلى خيانة أمانة إلى تجارة مخدرات إلى تجارة أسلحة إلى تجارة أعراض !

ومن أسلحة ألمانية أو إنجليزية أو إيطالية أو أمريكية إلى محركات طائرات أو ملابس أو طعام أو مخابير علمية أو ما عدا ذلك . حتى الصناديق التى تحوى جثث القوات المحنطة . . . كانت تباع جزافا .

وقريباً من عين شمس هجعت مواقع جل سكانها من الأجانب سيقوا

إلى معسكرات الاعتقال ، وخلفوا نساءهم مسرحات ، فكان الجند البريطانى يفد عليها فى الليل والنهار مخموراً ، مزخرفا ، مزيفا ، لا أثارة عنده من خجل أو حياء.

وكان مقام أحمد عصمت فى عين شمس ، فكان الفساد الإنجليزى مشغلة نفسه ، وكأنما كانت الكلمات من فيه قطرات سخط منصهر ، أو دموعاً تتحدر .

وفى ٤ من فبراير سنة ١٩٤٢ اقتحمت دبابات الإنجليز أبواب قصر الملك ، وصعد الضباط البريطانيون درجاته يستبدلون وزارة أحوجتهم اليها محنتهم ، بوزارة فى دست الحكم لم يعودوا بحاجة إليها

وصحت مصر على أمر مريج

كانت تشم رائحه الدم وفيح جهنم ، فالأفواه ملثمة ، والأقلام محطمة ، وعلى كل أداة من أدوات الخطابة أو الكتابة أو الهمس رقيب عتيد . لكن أنباء « ٤ من فبراير » ذاعت كما يشيع اللهب ، فهاج ضمير الشعب ، وإن أفلح فى درء العواقب قيام الأغلبية الشعبية فى الحكم.

وأقيلت حكومة الوفد فى خريف سنة ١٩٤٤ على عادتها، وعادة القصر معها ، تقال ولا تستقيل

وعينت حكومة ائتلاف بين أحزاب الأقلية كانت فى الواقع حكومة القصر . وأجريت انتخابات أنتجت أغلبية برلمانية للأقلية الشعبية .

* * *

وسكت قصف المدافع . وكانت مئات الآلاف من الشباب والخبراء والعلماء والرؤساء قد أجاءتهم إلى مصر صيحة الحرب ، ليتواقعوا فيها أو ليرحلوا منها ، وكان موقف مصر من المختصمين وجيها عند كل منهما . . .

مذ وقت بعهدها لمن عاهدوها ، ولم ينقم الآخرون عليها مسلكها ؛ فكان لنا فى كل قلب مكان . وكان لنا الملايين من ألسنة الصدق فى القارات الخمس، تشيد بمزايا مصر الجغرافية وموقعها الحربى وكمال مسلكها وفيض أنعمها

وزاد فضلنا على العالم الغربى أن كنا نقطة التحول فى تاريخ الحرب فى موقعة (العلمين) ، فكان اسم مصر اسم الخير ، والجمال الطبيعى ، والفراعنة ... والانتصار .

ومن الناحية الأخرى سجلت مصر السياسية لنفسها تقدماً بالموائيق العالمية التى تعاهدت عليها الدول فى إبان الحرب ، ولم يعد يسوغ فى فهمها تعاقد الدول المحتلة مع الدول التى تحتلها ، فاصيبت معاهدة سنة ١٩٣٦ إصابة مباشرة

ولم يكن ينقص مصر للنصر إلا خطة سياسية مثلى ...

لكن الذى وقع نقيض ما كان يتوقع ، فإذا بشياطين الشر المسلطة عليها تشعل فيها حرباً أهلية ، بل وحرباً خارجية ، لتصرفها عن غايتها وتصدها عن قبلتها

ووقفت مصر وحدها ضد كثرة الأمم ، على يد حكومة تقف وحدها ضد كثرة الأمة . . . ! ويمسك سكان سفينتها فى محيط السياسة العالمية ، أصابع الإنجليز فى قصر الملك !

وبدأنا معركتنا السياسية مع الإنجليز منهزمين !

نشبت الحرب الأهلية بين الكثرة الشعبية والحكومة ، فلم يتأثر أحد عصمت بخلافات الأحزاب . حتى إذا قتل رئيس الوزارة الدكتور أحمد ماهر باشا أمضه الأسى فكان يرى فى مقتله «خسارة رجل شجاع».

وكم كان يحتد ويشتد فى دفاعه عن أحمد ماهر ! وما أروع جداله فى ذلك مع المرحوم « محمد شكرى كيرشاه »

كان شكرى فى طليعة شباب الحزب الوطنى وكبار الوطنيين ، من أخطب خطباء الشعب فى الأزهر سنة ١٩١٩ وفى مجامع حزبه ، أب الأحزاب . فكان له أن يأمل فى صفوفه مكاناً أول ، لكن الصدارة كتبت له فى ميدان الاضطهاد ، فصار غرضاً للبوليس السياسى ، وأقصى عن الصفوف الأولى ، ومرض ، فضاق صدره وانطلق لسانه ، فترك المحاماة إلى القضاء ... حيث كان يقول « اللهم إنى أعبدك بقضائى »

وكان فى مطالع العقد الخامس من العمر عندما طرق أحمد أبواب عقده الثالث ، فلما توثقت بينهما عرى الصداقة كانت إجازاته فى تسع سنين زيارات متواصلة لعين شمس يسميها « الجنة » بدلا من « الجنينة » . ولم يرحل أحمد إلى مزارعه فى « بنى سويف » أو « بيا » إلا قصد اليه فى جلساته ، فانسحبت للقائه هيئة المحكمة

كنت تسمع أحمد يقول له « إن السعادة كالعطر لا يصل إلى حواس الغير إلا إذا عطر اليد التى تفرقه فى الناس » فيقول له فى بديهة مواتية : [ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « اسمح يسمح لك »] ويقول أحمد « إن السعادة رقم حسابى عجيب ، إذا أردت أن تضاعفه فقسمه ! » ويقول شكرى [كلما تملكت أشياء أكثر ملكتك الأشياء أكثر]

وكم كان فى أموال شكرى من حقوق للسائل والمحروم ، والمجاهد المهضوم !

وذات صباح دخل أحمد قاعة القاضى فى محكمة « بيا » ، ودخل محام كان وزيراً وكان باشا ، فكبكبه القاضى ودهوره ، فلما رجع القاضى وصديقه إلى شاطىء النيل فى بنى سويف ، تجاريا يتناقشان فى عنف

القاضى مع المحامى ، وكانت حجة شكرى أن المحامى حسب نفسه وزيراً وهو بين يدى القضاء ، والناس بين يدى القضاء سواء .

كان يقول لشكرى « إن ديلسبس بفصله بين القارتين ، يوم حفر قناة السويس ، قد جمع العالمين الغربى والشرقى فحضارتنا شرقية غربية » ، ويقول له شكرى : « لا بل مصرية إسلامية » ويردد بالانجليزية قول شاعر الإمبراطورية « كبلنج » (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) « ويوم نعامل الغرب على استغناء ، سينشد عندنا صداقة الأنداد والأعدال »

ويطيب الجدال فى أحمد ماهر لأن أحمد يعرف أن قاتله (عيسوى) كان من المعجبين الكثيرين بشكرى .

وكثيراً ماينتهى الرجلان إلى تأجيل بحث قضية ... لأن فى نفس أحمد بقية . . . فقليلون كانوا يثبتون لجدال « شكرى كيرشاه »

ولى النقراشى الحكم بعد أحمد ماهر ثم تركه لإسماعيل صـــدقى . فتفاوض صدقى مع الانجليز فى سنة ١٩٤٦ ولم يكن أحمد ينسى « لصدقى » أن راحتيه لوثتا بدم الدستور فى سنة ١٩٣٠

وحبطت المفاوضات وعاد النقراشى لرياسة الوزارة . فرحل إلى مجلس الأمن فى « ليكسكسيس » لعرض القضية المصرية . ولم يكن أحمد يرتجى خيراً من رحلته ، ومع ذلك شهده الناس يسهر إلى ما بعد منتصف الليل ، لتلقى إليه الإذاعة المصرية السمع عن نتائج الجلسات فى مجلس الأمن .

فلما قتل النقراشى حزنه قتله فكان يقول : « رجل مستقيم فقدناه » فى هذه الأثناء بلغ فساد الحكم أبعد أغواره ، وقذف الملك بنفسه فى لجته ، وراحت الأقلية الحاكمة تمكن لسلطانها فى الشعب بالبطش فتبادل الجانبان الهجوم والدفاع ... ! وعمت موجه الإرهاب والاعتقال وتكميم الصحف

ووقعت جرائم شتى . منها محاولات الاعتداء على الرئيس السابق مصطفى النحاس. فكان أحمد يعنى بدراسة طريقة الاعتداء ووسائل المعتدين، وانتهى إلى رأى لم يتحلحل عنه وهو، أن هذه الاعتداءات المتوالية ليست من الأحزاب وإنما هى اعتداءات خبراء فى استعمال السلاح مطمئنين إلى تأييد قوة مسيطرة ، مستمرة ، يظاهرها القصر » .

ولم يكن أقطع ولا أشق عليه من قتل رئيس محكمة الجنايات « المرحوم الخازندار بك » فى طريقه إلى محراب العدالة فى ضحوة النهار فى حلوان . فكان يقول « الناس يقتلون قاضيهم » ! ! وقتل حكمدار العاصمة ، ثم قتل زعيم الإخوان المسلمين المرحوم « الشيخ حسن البنا » . وكان من أقرباء أحمد عصمت ورفقته كثير من الإخوان أضناه حبسهم والسعى لهم . وأخذ الضيق منه كل مأخذ وكان يظن أن قتلته هم الذين شرعوا فى قتل الرئيس السابق مصطفى النحاس . فكان يتندر على نظام الحكم بقوله « لقد صرنا فى أمريكا الجنوبية حيث قال القسيس لأحد الدكتاتوريين وهو على عتبات القبر يابنى سامح أعداءك فأجاب :

يا أبت ليس لى أعداء .

قال القسيس كيف ؟

قال : « لقد قتلتهم جميعا . . . » ! !

* * *

ولما جاء دور الحرب الخارجية فى فلسطين اشتمله الانبعاث الوطنى . واحتمله عاملان آخران فى خصوصية شخصه ؛ أولهما حق الجار والعشير ممن يمتون إلى فلسطين بسبب ، وكم كان فيه لجيرانه ؛ وثانيهما اقتداره على ما يرجى لديه من الفضل ؛ فقليلون كانوا كمثله علما بشئون السلاح ، وقدرة على الحصول عليه ، لجاد الفتى الجواد بجهوده ؛ وأهمته هموم فلسطين ، فكان ـ وهو الذى يأوى إلى فراشه فى التاسعة مساء

ليطير عندما يتنفس الصباح سيتلبث حتى آخر الليل فى انتظار البلاغات الرسمية. فإذا لم ترقه الأخبار مضى بها وضاق ذرعا ، وبات بشر ليلة بات بها رجل.

فإذا أطربته أذاعها فى بنيه وهو يلقى عليهم « دروس ضرب النار »

« دروس ضرب النار »

وكانت الفتاة لا تقوى على متابعة ضرب النار أو فهم الأخبار ، ومع ذلك لا تدع المحاضرات تفوتها، وأما الولدان فكانا فى ثياب الرياضة أو ثياب رعاة البقر، يتنافسان أباهما فى حماسه ، تلميذين نابهين فى دروسه ،

يدركان من أنواع السلاح وأسمائه فوق ما يدركه أبناء « الذوات » من أسماء السيارات والروايات والمسارح

وشغفه الشهيد الطيار « عبد الحميد أبو زيد » حبا فكان موضوعا مستمراً لهذه المحاضرات . لكثرة ما ألقى على مواقع العدو . ودمر من طائراته، فلما احتواه اليم احتواه هو الألم . وكأنما فقد فيه بعض ذاته ، وفقد الصغار فيه رجل الأساطير .

وبدأ يهزه الإحساس العنيف الذى هز غلاة الوطنية فى ذلك الحين : أن الانجليز قد خدعوا مصر .

ولو قدر لك أن تشهد فى بسانينه أيامئذ بعض مجالسه وصحبه ، لرأيت مبلغ ما يرتفع مد الوطنية ، ويتسع مدى التضحية ، لدى المصرى الكبير إذ يهب نفسه لقضية بلاده .

كنت تسمعهم يقولون وكأنما يبكون « إننا كنا على أبواب تل أبيب وكانت الألوية المصرية ترفرف على بطاح فلسطين وسهولها . فنكستها السياسة البريطانية كما صنعت من قبل قريبا من هذه البقاع نفسها ، يوم اجتاحت جيوش مصر الجيوش التركية فى سوريا ولبنان وآسيا الصغرى وراحت تدق أبواب القسطنطينية ، فردتها المناورات الانجليزية الخفية والعلنية ، لأنها لا تطيق قيام دولة قوية ذات أسطول فى شرق البحر ، كانت وما تزال جسر الحضارة إلى نصف كرة الأرض . ولن يصلح انجلترا بال إلا إذا لم يصلح لمصر بال ، وكلما سيقت أمة إلى الحرب ، ظفرت انجلترا بنصيب الأسد ، وإن لم تخض معركة »

ويعود أحمد بسامعيه إلى منطقته الخاصة . وهى بطولة الجند المصرى فى السودان فيقول « ألم تنشر جيوش « عبد القادر حلمى » السلام فى النيلين الأبيض والأزرق ؟ ولكنه مع ذلك سحب من السودان كيلا يستتب السلام فى السودان ، وكى ينسحب الجيش المصرى من السودان المصرى؟

ألم تكن دعوات المهدى وأتباعه عقب كل صلاة «يارب يا قادر : اكفنا عبد القادر ! فكفاهم الانجليز عبد القادر » !

ثم يقول « تلك هى السياسة الانجليزية فى مصر ، وستظل على ذلك أبداً ... »

وطفق ينعى على السياسة المصرية خيبتها وورطتها ، وكم سمع أيامئذ يقول « إن إنجلترا لا تحفل إلا بالضربات المباشرة .. وقد عرف اليهود كيف يجلونها عن فلسطين بالضربات المباشرة .. بالقتل ، ومعاملتها بالمثل ، عين بعين وسن بسن ، وأسير بأسير . ولم تظفر مصر منها بحق مغتصب ، أو بتسريح زعيم معتقل ، إلا بالضربات المباشرة . وان تظفر منها بشىء إلا بذات الوسائل أو فى نفس الظروف » .

ويقول دون أن يقبل جدلا وكأنما يصدر حكما نهائيا « لقد كسبنا حرب فلسطين ولو خسرناها ، فإنها البشير بانهيار الاستعمار ، لأن بسالة المصريين ، وبخاصة ضباط الحلة ، قد أثبتت مقدرة الجندى المصرى الحديث على خوض المعارك والجود بروحه فى نبالة واعتزاز » .

ويقول « إن الانجليز بعد أن تيقنوا من ميلاد هذه الروح العالية فينـــا سيدركون أن يومهم قد حل . وسيعملون كعادتهم على أن يولونا أدبارهم دون قتال »

ثم يتساءل « ألسنا على عهد معهم أن يحاربوا عدونا فكيف يخذلوننا ويمكنونه من تطويقنا ؟ »

وأعلن سخطه على الأحزاب التى فى الحكم من أجل سياستها فى أثناء الحرب ، والأحزاب التى فى خارج الحكم من أجل توقيع المعاهدة .

قيل له يوما إن صدقى عارض تلك الحرب فى الجلسات السرية للبرلمان ، فاكفهر وجهه وقال « لو كان فى الحكم لأعلنها »

وفى ختام سنة ١٩٤٨ ، عام فلسطين ، مات « محمد شكرى كرشاه » فى

جراحة أجريت له . فطار أحمد إلى الاسكندرية لتشييع جنازته . وكان يقود بنفسه الطائرة فى شجاعة المقتدر على التحكم فى أعصابه مع هول مصابه .

° ° °

استبدت شياطين الفساد بأداة الحكم بعد حرب فلسطين ، كما سبقت لها الفتكة البكر على يد القصر ، وتهافت الحكام على مرضاته ، وانشغال الحكومات بالدفاع عن نفسها ، وتنفيذ أوامر الملك وكوكبة الحكام من عبيده ، فنشبت على أيديهم معـــارك الثراء العريض المستفيض وابتداع التقاليد لتعطيل الدستور ، وحتى الوزراء قاماتهم المديدة يقبلون راحة رجل ، هو الملك . وصور الكبراء بين يديه ، جثيا أو شبه جاثين ! . فكانت لطمات على وجوه الشعب جميعا !

وكان الراديو المصرى يكاد يسبح بحمده ! بل يتغنى بجمال قامته وبهاء طلعته ! فكان فى كل المسامع وقراً . وسميت كثرة المؤسسات باسمه والتمست الشركات التجارية أعضاءها عنده ، واستشرى فساد الحاشية واستسلام الحكام ، ودنا شبح الإفلاس الحكومى وانداحت موجة السفك والفتك ، فلم تكن الحكومة من الشعب كقائد الجند بل كانت كصائد الصيد ، تخاف المحكومين والمحكومون منها أخوف ، وتبادل الطرفان أزمة ثقة ليس لها من كاشف .

وأمست حكومة مصر كحكومة الصين يوم وقف « كونفشيوس » وتلاميذه على امرأة تنتحب فى قمة الجبل ، فلما سئلت ما خطبها أجابت : « فى هذا القبر يثوى جد لولدى قد افترسه نمر ، وفيه جثمان زوجى قد غاله نمر آخر ، ولقد واريت فيه الآن ولدى فريسة نمر جديد » قيل : فلماذا لا تبرحين هذه المسبعة ؟ فأجابت لأن « حكومة الصين الظالمة لا تصل اليها » .

قال كونفشيوس : تذكروا أن الحكومة الظالمة أفتك من النمور .

وازداد أحمد تضجراً ووقاراً وعلمته الأسفار أن يذيب ذاته فى ذات بلاده .

والمصرى فى أسفاره هو مصر ذاتها ، كأنما العلم المصرى فوق المعارج . جواز سفر المصرى فى الخارج ، بعثت فيه مصر كلمتها إلى الأمم الأخرى على صورة رجل ، يتلقى من الحفاوة باسمها ما لا يخطر على بال من لم يرتحل ، وكلما أوغل فى حدود الدول ، عرفه ما تكابده فيض الخير فى أرض مصر ، من شبع وري وجمال طبيعى وسلام ومحبة ، فشغف بها حباً ، لا تعصباً . وكلما غادر ورجع استفاض إيمانه وزاد بتكراره .

تملك أحمد عصمت بعد حرب فلسطين التعصب لكل ما هو مصرى ، فهجر حائكه الأجنبى وانصرف عن المحال الأجنبية والصحف الأجنبية المحلية ، وأحس أحاسيس جماعة من بنى الوطن فى الأمم الكبرى هم بناة مجده وأساة جراحه ، تهمهم همومه ، وتؤرقهم مطامعه . وهم فى الكثرة الغالبة فروع الوطنية المتأصلة فى قديم تاريخه ، تسيطر عليهم تلك الثقافة التى يرث بعضها أسباط الأسر الكبيرة الذين خلقوا ليلوا أعمالا كبيرة ، وكانت تربيتهم وليدة مجتمعهم والدم الذى ينحدر فى أصلابهم ، والتاريخ العائلى الذى يلقنونه . فيكسب الفتى منهم وقارة حدثا وتوهب له من السماء مواهب القواد والرؤساء .

وتخلق المسئولية التى يندبون لها أنفسهم ، السلطة لهم على ما يحيط بهم مثلما تخلق السلطة التى يُسلم بها لهم ، مسئوليتهم أمام أنفسهم وأمام بنى وطنهم عن إسعاد شعبهم .

وكان فى هذا الطراز من الرجال جماع المزايا فى المجتمع العربى والإسلامى حيث حمل سادات القبائل تبعاتهم فى إصلاح المجتمع ورعاية بطونه وقيادة جيوشه .

انشغل أحمد فى تلك الفترة بالشئون العامة لأمته كل الانشغال وكان يصعد درجات السابعة والعشرين إلى ما تلاها ، فلم يكف عن التصدى لكل أمر جامع ، دون تحسر على ما مضى ولا جدع فيمن هفا ، بل كما كان يقول دائماً « بإبداء آراء إنشائية » .

وهو مقل منصف ، لا يأكل لحم الناس ، عليم بأن العبقرية نفسها لا تعدم قوما ، كذئاب الليل كلما أوريت النار ، تقعى على مبعدة منها فى كل طريق ومرقب .

والنقد يسير والعمل عسير ، ولخير لك أن تثقب شعلة متهافتة من أن تلعن الظلمات .

وأضافت رحلاته إلى آرائه الوطنية معارف ضافية عن البلاد العربية ، فكان يعرف من هواهم معنا ومن يظنون الظنون بنا ويقلبون الامور لنا . فأصبح وأمسى يقول « يجب أن نعول على أنفسنا ... » ويقول « لقد أثبت الجند المصرى جدارته وضراوته من عهد « تحتمس » و « رمسيس » و « صلاح الدين » وردد نا التتار والصليبيين وحدنا فى الشرق والشمال ، فيجب أن نبنى سياستنا الخارجية على أساس مستقل . والويل لمن لم تعظه عبر التاريخ »

استقالت الوزارة ذات الأكثرية البرلمانية ، وولیت الحكم وزارة ائتلافية ، فأخرى مستقلة لإجراء انتخابات ، وأحس المصريون أن ضمير الغيب قد أجن لمصر أحداثاً جدداً ، وتساءلوا ماذا فى ضمير الغد ؟

وكان النسر المصرى أكثر رحلة إلى الخارج منه فى أى وقت مضى ، وكأنما كان فى حاجة إلى الراحة من طول ما كد نفسه فى السنوات المنصرمة على قصرها ، بالزواج والإنجاب وغرس البساتين ، إلى البناء ، إلى تعلم الطير ان إلى المشاركة فى أعمال التطوع ، إلى الاهتمام اليومى ، الفكرى والفعلى ،

بآمال وطنه وآلام مواطنيه .

وأى جهد كان ذلك الجهد فى بضع سنين .

لكنك إذا استعرضت تلك الجهـــود وحوادث الطيران ، وطراز نشأته وثقافاته ، تجلى لك وراء شخصيته أمران جامعان ، كأنهما نهران يرويان شجرة البطولة النامية ، فسيطرا على ملكاته وتصرفاته طول حياته .

كان الأمر الأول ، فيما يتعلق بمصر ، أسرته الكبرى ، اتجاهاً بحسب طباعه ، إلى أعلى ، وفى خط مستقيم ، إلى العدو الحقيقى وهو الانجليز ؛ وفيما يتعلق بأسرته الصغرى ، كان اقتداراً على تنفيذ المشروعات الكبيرة .

أما الأمر الثانى ، فهو الدقة الهندسية عند التنفيذ ، فى اتزان لا يطيش بحكم ، ولا يخطىء فى قياس المسافات عند ما يكون الخطأ مفظعاً فى الهنات . فاذا جد الجد أدى واجبه فى الأرض أو فى السماء أبرع أداء ، وتصرف التصرف الواجب ـ كائناً ما هو كائن ـ دون أن يحفل بحياته ... وكانت توهب له الحياة .

وما يوم ١٤ من يناير سنة ١٩٥٢ إلا يوم اجتمع الأمران ، وصب النهران كل ما يحتويان ، فى لحظات حاسمة .